د/ فتحي محمد .

أستاذ محاضر- قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة جيلالي ليابس - سيدي بلعباس .

تجليات القيم الإنسانية لدى الأمير عبد القادر في رواية واسيني الأعرج (كتاب الأمير،مسالك أبواب الحديد)

يقول واسيني في عتبة هذه الرواية: (أعتقد أنه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في نصرة الحق تجاه هذا الرجل و تبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زوراً وربما التسريع بإزالة الغموض وانقشاع الدكنة التي غلفت وجه الحقيقة مدة طويلة)1

دفعني هذا المقول المثير المستوجب للاستقراء والتوقف إلى استجلاء بعضاً من القيم النبيلة الواردة في هذه الرواية والتي جسدت الشخصية الجزائرية من خلال الأمير عبد القادر في بعد تاريخها الإنساني والحضاري، سوف أقارب هذه المثل والقيم الأخلاقية الرفيعة والمنبثقة من تراثنا الثقافي والفكري مقاربة من واقع مسيرة الأمير وتلوناتها في ظروفها الزمكانية .

يذكر الكاتب أن هذه أول رواية كتبت عن هذا الرجل الألمعي الفذ العبقري في مسيرته الجهادية وفي حياته الإنسانية،استند صاحبها إلى المادة التاريخية ليس بهدف سرد الأحداث وتقصي الوقائع كما وقعت وإنما بغرض تفجيرها واستنطاقها لتبوح بمكنوناتها في منظور مخيال الأديب،وذلك بالاستماع إلى صراخ وأنين الناس والوقوف على أفراحهم وأقراحهم كما ذكر الكاتب.

يشكل النص السردي نسجاً من فضاءات واسعة ومتشظية، فيرتبط بما هو أدبي تخييلي وبما هو سوسيو تاريخي وثقافي، وبما أن المبدع جزء من المجتمع الذي يعيش فيه، فإن هذه العناصر تشكل إكسيراً في النتاج الإبداعي،ومن ثمة فالنص قبل أن يكون متصوراً ذهنياً أو معطى جمالياً فنياً،فهو تلك الفيوضات بكل محمولاته اللغوية والعاطفية وشحناته البيئية وفق ما تمليه مخيلة المبدع وذاكرته الأولى لنواته البدئية)2

جسدت هذه الرواية مفهوم (الإنسانية) لدى الأمير في مجموعة من النصوص نجتزئ منها ما يسمح به المقام في هذه المداخلة المتواضعة،نستشف من خلالها سلوك الأمير المؤمن بوطنيته الضيقة في حدودها الجغراقية الواسعة في فضائها العربي والإنساني،ومرد هذه القيم التي أنارت سبل الأمير الجهادية إلى الموروائية الفكرية والبيئية التي انبثقت من مفهومه العميق للإسلام المتخذ من روح العلم سلاحاً،فهو أديب وشاعر وفيلسوف وعالم دين صوفي منفتح على علوم عصره غير منغلق على أوراد وأذكار ذات مرجعية معينة،بل كان منفتحاً على ثقافات وفنون عصره على الرغم من ضيق وقته بانشغالاته الجهادية والأسرية.

أعتقد دون مواربة ذلك هو منهجه في البناء والتغيير،والهدف المنشود في بناء جيل جزائري يقبل بالآخر وينفتح على ثقافات غيره،ولعله كان يرمو إلى ما يصطلح عليه اليوم بـ حوار الحضارات.

شكلت هذه المفاهيم النبيلة المخيال الأدبي لواسيني الأعرج الأرضية الخصبة في بناء أحداث هذه الرواية،ونشير أن أحداث السرد مروية كانت أو مكتوبة خيالية أو واقعية لا تقول كل شيء فتصويرها لما هو ممكن كما يقول إيكو يظل دائماً ناقصاً3 وعليه بات دور القارئ مركزياً ذلك بأن النص الذي يقدم إليه

ليس كاملا ولا جاهزاً ولا مصنعاً،فدوره في مثل هذه الحال كأنه بنائي لا استهلاكي4 لأن القراءة النمطية للنص تجعله في عداد الموات والمتباينة تقدم له شهادة الميلاد والخلود في الأجيال والأزمان،لأن العلوم الإنسانية لا تعتمد الأحكام القطعية الجاهزة الجازمة، بل تعمد الظنية في القراءات وتترك الباب على التأويلات والتفسيرات المحتملة.

ويلاحظ أن الشخوص الفاعلة في الرواية وذات المواقف الإنسانية اللافتة،مثلها الكاتب في:الأمير عبد القادر،القس منسيمنيور ديبوشMonseigneur Dupuch 5،ونابليون الثالث6 وقد اتخذناها محور هذه الدراسة في بعض مواقفها الإنسانية التي زخرت بها هذه الرواية والتي لا يمكن الإتيان عليها كلها.

كلف ملك المغرب أحد خدامه باغتيال الأمير ومنذ فشل هذه الحادثة والأمير يتساءل عن القوة التي منعت العبد من أن يدفن في ظهره سيفه بينما كان هو منكفئاً في قراءة القرآن...ينحني العبد الغادر بعد فشله في محاولته البائسة عند رجلي الأمير طالباً الصفح عنه:

- يا أمير المؤمنين لقد كلفت بقتلك وها أنذا أفشل في رفع سيفي ولا أدري لماذا مع أني كنت لوحدي كما ترى؟ عندما هممت بفعل ذلك رأيت هالة من النور، غمرتني ولم أعد أرى شيئاً أبداً، فقط هذه علامة من علامات الله.

قال الأمير بهدوء ورزانة .

- سبحانه، أترك سيفك فلستَ بحاجة إليه وارتح هنا بجانبي قليلا بالضبط على نفس الزريبة التي كنت أصلي عليها وأقرأ كلام الله الذي لا أشك أنك تعرفه،لقد شاء الله أن تدخل قاتلا وتخرج منه كريماً مؤمناً...
- يقول:الأمير أُطلقوا سبيله،لو كان يريد قتلي لفعل منذ أكثر من ساعة حيث لم يكن إلا هو وأنا،فهو واحد منا إذا شاء وإذا شاء أن يعود لذويه،أُعطوه حصاناً وساعدوه على تخطي الحواجز المنصوبة...
- ولهذا فهو حر طليق،لا أقتل رجلا حماني من موت كان يحمله بين يديه وفي رأسه اتقوا الله دمه صار في أعناقنا7...

يصور الكاتب شخصية الأمير في بعدها الإنساني حتى في أحلك المواقف،يسامح ويكافئ ويجنح إلى السلم والصفح ليتجنب سفك الدماء ويلاطف من أراد به شراً ويدعوه إلى الجلوس بجواره ويمنع أصحابه من الفتك به، قال:ديبوش،لا يمكن أن يقوم بهذا إلا رجل عظيم ...فهو يعذر حتى الذين تسببوا في عذابه الكبير،مسلمين كانوا أم مسيحيين 8

إذ قلما يجود التاريخ بقادة يتصرفون بوحي العقل والشرع كما تصرف الأمير وأقرانه،فهؤلاء هم مفاخرنا تجاه الإنسانية كلها،فالإسلام لا يطلب من الإنسان أن يكون مجاهداً ليصبح محارباً،بل يطلب منه أن يكون مجاهداً ليصبح إنساناً كاملا9 يرفض العنف بكل مستوياته إلا في أطره المشروعة،وهذا هو المعيار العميق لمفهوم الإنسانية والوتد الأساس في نجاح حضارتنا الإسلامية في عصورها الزاهية ،لأنها لم تغيب العقل في مسراتها،بل عملت على تكامله مع أحكام الشرع. يقول تعالى:في ذات السياق(فمن عفا وأصلح فأجره على الله ويقول أيضا: خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين .

وبعد نقاش حول المسيحية بين الأمير والأب سوشي قال الأخير:سيدي (ملك فرنسا) يطلب منك هل بالإمكان السماح بحضور قس بجانب السجناء الفرنسيين مستقبلا يساعدهم على تحمل سجنهم ومأساتهم ؟

يستطيع أن يفعل ذلك ومن الآن.

أتمنى أن تكتب لي ذلك حتى يتمكن مونسنيور من قراءته.

ثم كتب هذه الكلمات :

لقد طلبتم مني إن لم أر مانعاً في بعثكم أحد قساوستكم للتخفيف عن السجناء الفرنسيين إذا تضاعف عددهم مستقبلا أقول لكم على الرحب والسعة وأقبل بهذا المقترح عنكم بصدر رحب ونستقبل مبعوثكم بالحفاوة والكرم إن شاء الله...يكون ذلك فرصة كبيرة للقيام بعمل خيري إنساني جديد دمتم في رعاية الله وحفظه10.

يلاحظ القارئ الفرق بين الشخصيتين ومن خلالهما الحضارتين، على الرغم من موافقة الأمير على مطلب سوشي إلا أن الأخير طلب ذلك كتابياً من الأمير خشية من المجهول،غير أن الأمير بدد شكوكه بكتابة مطلبه.

وفق هذا المنظور يرى ابن خلدون أن أساس الملك العدل والعدل المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيماً11ومنها الحرية التي تسلب من الأسير أو السجين، بهدف تعويقه ومعاقبته وليس تعذيبه أو الانتقام منه،ولما كان عالم السجن مختلفا كلياً عن عالم الحياة الرحب الواسع والحياة فيه لها طبيعة مختلفة،ذهب بعض علماء المسلمين ومنهم ابن حزم أن الدولة ترعى شؤون المساجين الدينية ويجعل الإمام "الحاكم" لأهل السجن إماماً يصلي بهم الجماعة والفرائض ويرزقهم من بيت مال المسلمين12 ومن سماحة الإسلام وعدله في بعده الإنساني،فإن هذا الحكم لا ينطلي على المسلمين وحدهم،لأن الإسلام رسالة إنسانية قامت على أساس إقرار حرية الإنسان ونبذ التفرقة العنصرية التي هي ليست ضرباً من ضروب الانحراف عن الطبيعة البشرية فحسب،بل يراها الإسلام اعتداءً منكراً على هذه الطبيعة تجب مقاومته بكل طاقة يمكلونها الأحرار المتساوون أمام ضمائرهم الحية ومواقفهم الإنسانية في من اختلف معهم ديناً وإيماناً.

يحدِّث الأمير صديقه ديبوش في سجن أمبواز أنه بدأ في قراءة كتاب الإنجيل وفي فترة إقامتك بجانبي،أتمنى أن تسمح لي بمسائلتك عن بعض القضايا الغامضة لم تتح لي الحروب والتنقلات المستمرة إلا قراءة شذرات صغيرة هنا وهناك لكن هذه المرة أنا مصمم على قراءته كاملا،وفهمه إن أمكن،سادتنا القدماء فعلوا مثل هذا الأمر دون أن يختل إيمانهم13

يبدو أن الكاتب اعتمل الخلفية الفكرية والثقافية للأمير في هذا النص،المستوحى من قوله:

فَطَوْرا تراني مسلما أيَّ مسلم زَهودا نسوكاً خاضعاً طالـــــباً مَدَا 14

فطوراً تراني لكنائس مسرعاً وفي وَسْطِيَ الزنَّار أحكمته شدا

وطوراً بمدارس اليهود مدرساً أُقررُ تـــوراة وأبـــدي لهـــم رشــــدا

تظهر هذه الأبيات إيمان الأمير العميق بحرية المعتقد وأن دينه لا يمنعه من قراءة بقية الكتب السماوية المرسلة،فهي نبراس للإنسانية جمعاء،إذ أن أساس الديانة وأصولها لا خلاف فيه بين الأنبياء من آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام،فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه، ويبدو أن الأمير كان

يؤمن بوحدة الأديان وتجلى ذلك في كتابه المواقف إن طريقة توحيدنا ما هي طريقة المتكلم ولا الحكيم المعلم ولكن طريقة توحيد الكتب المنزلة وسنة الرسل المرسلة،وهي التي كانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين والسادات العارفين".

ومما يعزز هذا التوجه أن ديبوش اكتشف شخصية الأمير في أبعادها الجهادية والدينية والثقافية والإنسانية،فقال:قضيت أياماً عديدة تحت سقفه المضياف،في حميمية نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر،أعتقد أنني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن أشهد بالحق من يكون هذا الرجل؟، ...لو أن كل الفرنسيين عرفوا عبد القادر مثلما أعرفه اليوم،لأنصفوه في أقرب وقت،لهذا أتصور أنه من واجبي الإنساني أن أفعل شيئاً في انتظار القيام بما هو أهم15...

إن هذه المعرفة الدقيقة والعميقة لشخصية الأمير أدركها ديبوش كما تصورها الكاتب بعد الخوض في مناقشة العديد من القضايا والمسائل السياسية والاجتماعية،فهذا الإعجاب،جعل ديبوش يقول:لو أن هذا الرجل ضمته الكنيسة إلى صفها لتحول إلى قوة كبيرة لمواجهة كل الخيبات والانتكاسات16 لعل الكاتب يشير ولو من طرف خفي من هذا النص إلى قِدم استقطاب العقول في كل مجالات الحياة ولا يرى حرجاً في إسهام غيره في نجاحاته .

لم يقصر الكاتب المواقف الإنسانية على الأمير في مساره الجهادي والاجتماعي،بل أرجع هذه المواقف النبيلة أيضاً إلى الفرنسيين قادة ومقودين بهدف خلق حوار حضاري بين الديانات والثقافات المختلفة،لأنها الميدان الوحيد الذي يستطيع البشر أن يتعارفوا فيه ويتفاهموا ويتعاشروا بالحسنى،ونعتقد أيضاً أن البشر لن يعرفوا السعادة في عالم تستبد فيه الضغائن والإحن،ويسود فيه الظلم والطغيان،وتسيطر عليه القيم الزائفة والحضارة المادية...إلا إذا تمسكوا بالقيم الروحية17 كملاذ للخلوص من أزمات الحياة وصراعاتها اللامتناهية .

استغل الكثير من الضباط السجناء السابقين فرصة وجود الأمير بباريس لزيارته وشكره على كل ما فعله من أجلهم، كان على رأس هؤلاء الكومندان كوربي دو كينيور le général courbet de cognord،سجين من سجناء موقعة سيدي إبراهيم الذي أصبح جنرالا ولم ينج من موت مؤكد إلا بمساعدة لالة الزهراء أم أمير المؤمنين18.

ولم تقتصر زيارات الأمير وشكره على واجبه الإنساني تجاه أعداء الأمس على جنس الرجال،بل أقبل عليه وفي موعد آخر وفداً أغلبه من نساء الطبقات الراقية في المدينة،أو اللواتي يأتين من بعيد لملاقاة هذا الرجل الذي أنقذ أزواجهن أو أهلهن من موت مؤكد أيام الحرب القاسية19 في الجزائر.

إن هذا الاحترام اللافت الذي حظي به الأمير في باريس من هذه الشريحة وغيرها أربك الأمير، فبدده أحد أعيان المدينة بقوله:للأمير إن هؤلاء الفرنسيين الذين كانوا بالأمس من أشد الأعداء لك تراهم يجلون مقامك ويتمنون طول حياتك ويتأسفون على ما تحملته من الصبر في بلادهم على الظلم الذي نالك من حكوماتهم السابقة فانشرح لذلك صدر الأمير20 من هذا الإعجاب غير المتوقع.

قد يكون مرد هذا الموقف الإنساني إلى إحسان الأمير لخصومه في الحرب،غير أن هذه الحرب وما تلاها من ثورات إلى غاية يوم النصر ساهمت بشكل مباشر في ترقية عساكر الجيش الفرنسي على

جرائمه الوحشية بكل فنونها وتلوناتها جاهلين ومتجاهلين ما يسمى في منظورهم المعاملات الإنسانية التي خنقت في مشنقة العدالة الفرنسية.

بعد زيارة لويس نابليون إلى الأمير تجـــولا مع بعض على متن حصانين عربيين رشيقين في الفضاء البارك الواسع سان ـ كلو،كان الأمير على ظهر الحصان الأبيض الذي أهداه له لويس ـ نابليون والذي قال:بعد لحظات من الصمت،كان فيها الأمير غارقاً في الطبيعة الممتدة على مرمى العين .

أملى أن يكون مقامك طيباً،أملك سيفاً عربياً قديماً21،سنه خلفاء الشرق القدماء،أرجو أن تقبله مني كهدية،ولكني أريد تعشيقه بمقبض وغمد يليقان بمقامك،للأسف لم ينته الحرفي من إنجازه ولكنه سيصلك في بروسا،سأكون سعيداً بإهدائك هذا السيف وأنا أعرف سلفاً أنك لن تستله في وجه فرنسا،لم أعد اليوم ممن يلتجئون إلى الأسلحة،سأدعو في صلواتي لسموكم ولبلادكم العظيمة خيراً وهداية،أما ما يحدث هناك،في تلك الأرض الطيبة الله،وحده يعرف سر عواقب الأشياء،أتمنى فقط خيراً للكل22

لنتساءل هل كان حصان لويس نابليون الأبيض رمز السلام كرد عن حصان الأمير الذي أهداه إلى الدوق دومال،وهل يعتقد أن يدعو الأمير في صلواته إلى لويس نابليون وهو رمز الاحتلال ويتفوه بعبارات الخاضع المستعطف وهو قائد محنك لجيش عظيم،وإلى فرنسا بالخير التي قوامها قرابة العقدين وسجنته في قصر أمبواز زهاء الخمس سنوات،وهو المتميز بالإباء وعزة النفس،فهو القائل:

وأبذل يوم الروع نفساً كريمة على أنها في السلم أغلى من الغالي

أم نضع ذلك كله في السياق المجاملاتي والدبلوماسي؟أم مرد ذلك إلى الخيال الأدبي الجامح،أم نرجع ذلك إلى البنية الفكرية للمتلقين ؟

وفي موضع آخر يؤالف الكاتب بين الأمير وديبوش في مودة حميمية لا فتة ذات بعد إنساني راق ولطيف يقول:ديبوش عرفت عبد القادر في أيام عزه وقت كانت الجزائر كلها تحت سطوة لسانه وقوانينه .... لا يطلب الشيء الكثير من الدنيا ولا يتشكى أبداً ويجد الأعذار حتى لخصومه في الميدان ولا يسمح لأحد بأن يمسهم بسوء...

البركة كل البركة فيك يا مونسينيور...كل ما يجب أن يقال استماتتك في الدفاع عن قضيتي لا يجزيك عليها إلا الله، أما أنا فعاجز حتى أن أرد لك متاعبك ومشاكلك بسببي واستيقاظك الباكر ونومك المتأخر...لم أقم إلا بما يمليه على حسي الإنساني وضميري23 .

أني لا أملك شيئاً ثميناً أهديه لك سوى هذا البُرنس، لكن ما في القلب أكبر بكثير مما ترى،هذا البرنس عزيز علي ولا أملك أثمن منه يستحق أن أهديه لك.

مونسينيور ديبوش:

صداقتك تكفيني وأنا سعيد بذلك24 .

- يجمع الكاتب في هذا النص بين الإسلام والمسيحية من خلال رجلين مختلفي الديانة والهدف إذ كل منهما يشيد بموقف الآخر في تجلة إنسانية تميزت بالوفاء ونكران الذات وعرفان الجميل والكرم والفضائل المحمودة، وهي الناموس الأكبر للرحمة والإحسان بين الأمم وخير نبراس يرسل أشعته على الإنسانية جمعاء،وبهذه السماحة ترقى الشعوب وتنموا مصالحها بغض النظر عن

ديانتها أوعرقها،غير أن القساوسة يتميزون بظاهر أعمالهم الرحيمة للشعوب الضعيفة خدمة لمصالح دولهم الخفية .

- تشير الأميرة بديعة الحسني الجزائري أن ديبوش قوال لملك فرنسا:(لويس فليب) لن يكون العرب فرنسيين إلا عندما يصبحون مسيحيين ويتوقف ذلك على جهودنا25 التنصيرية بالسعي الحثيث في أوجه البر والإحسان للعرب في الجزائر التي عدتها الكنيسة الكاثوليكية بوابة لنشر المسيحية في إفريقيا.

الإحالات:

1 الرواية ص 6.
2شادية شقروش: التخيل السردي ، قراءة في رواية الضحية لرابح خدوسي ، مجلة عمّان ع 141 مارس 2007 ص 74.
3 جلال عبد القادر :جمالية الفراغ في النص السردي سيدة المقام لواسيني الأعرج نموذجا مخطوط ماجستير جامعة سيدي بلعباس 2006 ، 2007 ص 77 .
4 عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية سلسلة عالم المعرفة الكويت ع 240 ، 1998، ص 82 .
5 : عينه البابا غريغور السادس 1838كأول قس للجزائر سخر كل حياته للآخرين إذ كان مصمماً على تغيير وجه الجزائر ، الرواية، ص 546

6 نابليون الثالث :اعتلى عرش فرنسا 1852.
7 الرواية: 376.
8 الرواية ص..41 .
9 حسن صعب : إسلام الحرية لا إسلام العبودية دار العلم للملايين بيروت ، ط 1 1994 ص 69 .
10الرواية: 284 ، 285 .
11 عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني بيروت1/ 1983 ص 64.
12 ابن رضوان المالقي : الشهب اللامعة في السياسة النافعة تحقيق علي سامي النشار دار الثقافة الدار البيضاء ط 1، 19984 ، ص 36 .
13 االرواية ص 43 .
14 المواقف ج 1 ص 20.
15 الرواية ص 20
16 الرواية: ص 44.
17 أحمد طالب الإبراهيمي :من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية ،تر جمة حنفي بن عيسى،الجزائر،ص 97
18الرواية : ص 511.
19 الرواية: ص 439.
20تحفة الزائر الإسكندرية، 2 / 1903 ص 42.
21 للمزيد ينظر، تحفة الزائر الإسكندرية 2 / 1903 ص 42.
22الرواية: 515
23 الرواية: ص 443.
24 الرواية: ص 537.
25 ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل ترجمة أبو القاسم سعد الله،دمشق ، 2001 ص 22 .